الجهاد الإسلامي

والحروب الصليبية "في غرب أفريقيا"

د. سيد أحمد علي الناصري

صحيح أن التسلل الاستعماري الأوروبي، في زحفه لغزو أفريقيا قد واجه مقاومة الدويلات الأفريقية الوثنية الوطنية مثل دولة الأشانتي في غانا، ودولة الداهومي، غير أن مقاومة هاتين الدولتين لم تنبع من قضية قومية، أو عقائدية توحد صفوفها، إنما كانت مقاومتها من أجل البقاء بعيداً عن الطوق الاستعماري الأوروبي، والحفاظ على كيانها السياسي. بينما نجد مقاومة الدويلات الأفريقية الاسلامية الواقعة إلى الغرب من السودان لهذا الاستعمار، تتخذ طابع الجهاد الاسلامي في وجه التبشير المسيحي. فقد انتشرت الصحوة الاسلامية، في هذه الدويلات ابان القرن التاسع عشر، وهي التي تصدت بعنف وشراسة للاستعمار الأوروبي في غرب أفريقيا استمراراً للغزو الصليبي لبلاد الاسلام (العربية). ومن ثم بينما قاومت الدويلات الأفريقية الوثنية مثل الداهومي والأشانتي الاستعمار الأوروبي منفردة، قاومت الدويلات الاسلامية

الأفريقية الزحف الأوروبي متحدة. ومن ثم أعطت العقيدة الاسلامية للقوى الوطنية الافريقية روح الجهاد في سبيل الله، والتسابق على الاستشهاد دفاعاً عن دين الله، إلى جانب الروح الاستقلالية الوطنية مما سبب للاستعمار البريطاني الفرنسي في غرب أفريقيا مقاومة شرسة، كبدته خسائر فادحة.

وفي ضوء ذلك يجب أن ننظر إلى تاريخ غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر، على أنه حروب صليبية جديدة، بين الدويلات الإسلامية من ناحية، وبين الاستعمار الأوروبي المسيحي من ناحية أخرى، والذي كان يرفع الصليب في المقدمة، بينما يسير وراءه الاستغلاليون والمغامرون، والباحثون عن الثروة والأرض الجيدة، والمواد الخام اللازمة للصناعة. لقد استقر الإسلام في غرب أفريقيا منذ عدة قرون سبقت على القرن التاسع عشر واعتنقه سكانها، وامتزج بثقافاتهم حتى أصبح تراثاً قومياً عزيزاً، وجديراً بالاستشهاد دفاعاً عنه، بينما كانت المسيحية الكاثوليكية، والبروستانتينية بفلسفتها المعقدة، غريبة تماماً عن الأرض والنفس الافريقية. وإذا كان كتاب الغرب الأوروبي يتهمون الإسلام ظلماً وعدواناً بأنه انتشر بحد السيف، فإننا نقول بأن المسيحية هي التي انتشرت في أفريقيا بنيران البنادق والمدافع كما سبق لها أن انتشرت في أوروبا بالسيوف وسفك الدماء(١).

كان أول إندلاع للحروب الصليبية الإفريقية في بلدة «المدينة»، الواقعة على نهر السنغال عام ١٨٥٧، عندماتوغلت قوات الاستعمار الفرنسي بقيادة الجنرال فيديرب Faidherbe داخل وادي نهر السنغال حتى واجهت القوات الإسلامية بقيادة المجاهد الإسلامي الحاج عمر طـال، والتي كانت تحكم منطقة الفوتا السنغالية. وبعد حصار طويل لقلعة المدينة تقهقرت قوات الحاج عمر هاربة من ذعر نيران الفرنسيين. غير أن المسلمين المجاهدين لم يتوقفوا عن مقاومة الزحف الفرنسي فهاجموا القاعدة الفرنسية في «ماتام» عام ١٨٥٩م، ومنها راحوا يضربون معاقل الاستعمار الفرنسي، حتى اضطرته إلى التوقف، ومنعته من احتلال وادي نهر السنغال. وقد لعبت القبائل الموريتانية دوراً في التكاتف مع أشقائهم الإفريقيين المسلمين، ولم يستطع الفرنسيون التسلل فيما وراء قلعة المدينة إلا بعد عام ١٨٨٠م.

يمكننا تتبع جذور حركة الصحوة الإسلامية في غرب أفريقيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلى ما بعد سقوط إمبراطورية السنغهاي قرب نهاية القرن السادس عشر علي يد

القوات المراكشية، مما أدى إلى تفكك أكبر دولة أفريقية مستقلة في ذلك الوقت إلى أجزاء مستقلة متفرقة. ولما شعر المسلمون بالخطر الذي يتربص بهم بعد سقوط الدويلات الإفريقية التي كانت تحميهم، بدأوا يطالبون بالجهاد وبالعودة إلى التراث الإسلامي لكي يستمدوا منه روح المقاومة والكفاح، مما أدى إلى تفجر هذه الصحوة، بل أن فكرة الجهاد والإصلاح ترجعان إلى وقت أقدم، إلى القرن الحادي عشر عندما غزا المرابطون أمبراطورية غانا عام ١٠٧٦م، في محاولة لتأسيس دولة إسلامية تقوم على الأسس السلفية في غرب السودان. غير أن تعاليم الزعيم الإسلامي «المغيلي» في القرن السادس عشر، لعبت الدور الأكبر في تفجير حركات اليقظة الإسلامية، إذ راح يعظ حكام الإمارات الإسلامية مثل أسكيا محمد الأول سلطان سونجهاي، وملوك كانوا وكاتسينا، بل وضع تعاليمه في مؤلف أسماه «إلتزامات الأمراء» ألزمهم باتباعه.

لقد كان سقوط أمبراطورية سونغهاي، نقطة تحول في تاريخ انتشار الإسلام بالطريق السلمي في غرب أفريقيا، فقد تلا ذلك عمليات القرصنة لإصطياد العبيد من جانب تجار النخاسة، كما سقطت الأمبراطوريات الكبرى في غرب أفريقيا، التي كانت قائمة منذ القرن الحادي عشر، وتحولت إلى أشلاء متفرقة، ولم يعد طريق السودان آمناً أمام التجار المسلمين، بعد سقوط أمبراطورية السنغهاي. وانتشر الفقر، واختفى الأمن، وحل العنف محل الهدوء والسكينة^(١). وقد انعكس عدم الاستقرار على أحوال التجمعات الإسلامية في غرب أفريقيا. ففي ظل الأمبراطوريات الإفريقية مثل مالي وسنغهاي، وإمارات الهوسا، ودولة البورنو، وجد المسلمون الإفريقيون أنفسهم طبقة راقية مميزة، وبعد سقوطها، فقدوا رعاية سلطاتها الحاكمة التي كانت تستفيد من علومهم، ومعرفتهم في تسيير أمورها، وأصبحوا أقليات تعيش في دويلات، يحكمها حكام وثنيون، لا يتعاطفون مع المسلمين بل كانوا يخافون من تكتلهم. ولهذا فإن فكرة الأمبراطوريات الإسلامية الكبرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يجب أن تفهم من خلال أنها كانت رد الفعل لما أصاب التجمعات الإسلامية في غرب أفريقيا بعد سقوط الدويلات الوطنية الإفريقية بالرغم من كونها وثنية^(٢).

قبل القرن السادس عشر الميلادي، وجد الإسلام طريقه إلى غرب أفريقيا عن طريق القوافل التجارية عبر الصحراء، إذ لعب التجار العرب والبربر على السواء دوراً كبيراً في تقديمه

كنموذج أفضل للحياة، التي كان يحياها الوثنيون الأفارقة، وكان أول من تقبل الإسلام وطريقة الحياة الإسلامية، التجار الإفريقيون، الذين كانوا يتعاملون مع التجار المسلمين. ولما كان الإسلام يحض المسلم على تعلم القرآن، فقد وجد المسلمون الإفريقيون أنفسهم متعلمين، يقرأون ويكتبون بالعربية إلى جانب لغاتهم المحلية، ويلتزمون بقوانين أخلاقية وشرعية، ويتمسكون بالطهارة والنظافة، ولذلك أصبحوا طبقة راقية متميزة، بالنسبة للوثنيين، ولهذا السبب أيضاً فتحت لهم إدارات الحكومات أبوابها للعمل فيها، وتسيير أمورها، وأصبحوا مصدراً أساسياً تعتمد عليه الأمبراطوريات الوثنية في إدارة شئونها الداخلية والخارجية(٣)، وبالرغم من ذلك، فقد تعرض المسلمون في بعض الأوقات للإضطهاد والتعذيب من الحكام الوثنيين، كما حدث إبان حكم سوني علي (١٤٦٤ ـ ١٤٩٢)، لكنهم شهدوا أعظم ازدهار لهم في حكم خليفته اسكيا الكبير (١٤٩٣ ـ ١٥٢٨)، ومما يثير الدهشة أن المسلمين قبل عام ١٦٠٠ كانوا يتمتعون بدور هام في البناء الإداري والتجاري للدويلات السنغالية الكبرى، وكانوا ينعمون بالأمن والحماية في ظلالها، بالرغم من أنها كانت وثنية. فكانوا يتولون إدارة دواوين المراسلات الخارجية والدبلوماسية والنظم المالية وأعمال جباية الخراج والمكوس، وإدارة العدل، والقضاء، بل كانوا يتولون تعليم أبناء السلاطين والأمراء في القصور. ولم يكونوا شديدي الحماس في هداية القبائل الوثنية التي كانوا يعيشون بينها إلى الإسلام، بالرغم من أن التجار العرب حتى قبل ظهور الجهاد الإسلامي الإفريقي، كانوا قد نجحوا في خلق تراث حضاري عميق الأثر، ورثه الذين اعتنقوا الإسلام على أيديهم من الأفريقيين على طول الساحل الإفريقي الواقع إلى الجنوب من الصحراء، وهو التراث الذي فشلت المسيحية في محوه حتى الآن، بالرغم من سيطرتها على البلاد بقوة السلاح.

كان أغلب حكام دويلات غرب أفريقيا بعد عام ١٦٠٠ وثنيين، بالرغم من احتضانهم للمسلمين لإدارة شئون الدويلات، إلا أن وضع الأقلية المسلمة لم يَكن آمناً، فلم يكن هناك ضمانات لسلامة التجار المسلمين المتجولين في مدن غرب أفريقيا، وفي مناطق الغابات. لكن كان هناك تعاون سري بين المسلمين، حيث كانوا يتلمسون أخبار بعضهم البعض، عن طريق حلقات إتصال، بل وكانوا على إتصال بالعالم الإسلامي الخارجي، ويلمون أخبار، ومن ثم نظر اليهم الحكام الوثنيون نظرة شك، رغم الخدمات الجليلة التي كانوا يقومون بها لدولهم،

ونفس نظرة التخوف وجدوها من عامة الشعب الوثني الإفريقي كما عومل المسلمون معاملة مجحفة، إذ فرضت عليهم ضرائب باهظة، وأجبروا على التجنيد لمحاربة ولايات إسلامية، مما جعل المسلمين يحتجون على محاربة أشقائهم من خلال الجيوش الوثنية. ولهذا ظهرت الدعوة إلى تحرير المسلمين الأفريقيين من نير الوثنيين، والحصول على حقوقهم كاملة. وكلما زاد تكتل المسلمين، كلما زادت دعوتهم للمطالبة بحقوقهم، ورفع المعاناة عنهم، بينما بدأ الحكام الوثنيون ينظرون إليهم على أنهم أقلية متماسكة تشكل خطراً على دولتهم، بسبب طموحاتهم السياسية والدينية. فبدأوا في إضطهادهم بالقتل والتعذيب من آن لآخر. وفي مواجهة الاضطهاد، ظهرت دعوة من المسلمين الأفارقة إلى الإتحاد، وتأسيس دولة إسلامية خالصة يتحررون فيها من ظلم الحكام الوثنيين، وتدار شئونها كما كانت تدار الخلافة الإسلامية في دمشق أو بغداد. ومن ثم ظهرت النبوءات في شكل انتظار «المهدي» أو المصلح(٤)، الذي يقود المسلمين الأفارقة في غرب السودان، وينصب نفسه خليفة عليهم. كما ظهرت الدعوة إلى الجهاد ضد مضطهديهم من الأفارقة الوثنيين. كان هذا هو حال المسلمين في غرب أفريقيا قرب نهاية القرن الثامن عشر. ولم يكن للمسلمين في ذلك الوقت دولة خاصة بهم يشعرون بالأمان داخلها سوى دولة البورنو، لأن سلاطين الهوسا كانوا يمزجون التعاليم الإسلامية بالمعتقدات الوثنية، إرضاء للقبائل التي يحكمونها. كما تبنى المجاهدون المسلمون فكرة العدالة في الحكم، والإصلاح الإجتماعي، ومن ثم تبلورت نظريات وأفكار إسلامية، من خلال رجال الدعوة الأفريقيين خلال القرن الثامن عشر. فدعوا إلى العودة إلى الإسلام كدين البداوة والفطرة، واتباع السنة والسلف الصالح، ونبذ البدع. هكذا كانت دعوة الجهاد في دولة السوكوتوا الإسلامية.

ومع مطلع القرن الثامن عشر، انتقلت الدعوة إلى الجهاد، من مرحلة التبشير إلى مرحلة التنفيذ، فقامت أول حركة في أقصى الغرب الأفريقي في تلال فوتا جاللون Futa Djallon **(عام ١٧٢٥)، ثم انتقلت إلى الفوتا تورو (١٧٧٥)، وكان هؤلاء المجاهدون هم النموذج الذي يحتذى به بالنسبة لمجاهدي القرن التاسع عشر، الذين طالبوا بخلق الدولة الإسلامية الأفريقية الكبرى. ومن أهم هؤلاء الرجال العظام: عثمان دان فوديو في شمال نيجيريا، والشيخ حاميدو في ماكينا، والحاج عمر في الفوتا تودور**

ولقد بدأ الحاج عمر يطالب آل السباركي في جبير، أكبر دويلات الهوسا أبان القرن الثامن

عشر بإصلاح الدولة في ظل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، واعتبر هؤلاء الحكام أن مطالبة هذا الزعيم الإسلامي لهم بإصلاح الدولة، تدخل سافر في شئونهم، فبدأوا في اضطهاده هو وأتباعه من المسلمين، خاصة أن دعوته العلنية بالإصلاح، لاقت التأييد، ليس من جانب قبائل الفولاني المسلمة، بل حتى من جانب جموع فلاحي قبائل الهوسا الوثنية، التي كانت ترزح تحت وطأة الضرائب الباهظة، ولما اشتدت وطأة الاضطهاد أعلن عثمان الجهاد ضد حاكم دولة جبير، وضد سائر ملوك الهابي⁽٦⁾، وسرعان ما تجمع حول عثمان أعداد غفيرة من المسلمين والوثنيين على السواء. ومن خلال دعوته بدأ الوثنيون الدخول في دين الله أفواجاً.

كانت دعوة المجاهد عثمان دان فوديو تطالب سلاطين الهوسا أن يتخذوا موقفاً متشدداً من الرعايا الوثنيين، وإصلاح أنفسهم طبقاً للشريعة الإسلامية الحقة، وإقامة الدولة على أساس الشريعة الإسلامية، واتهم عثمان هؤلاء السلاطين بالخروج عن الإسلام القويم. وامتدت دعوة الإصلاح، وأقيمت دويلات إسلامية، امتدت من مصب نهر السنغال غرباً حتى بحيرة تشاد شرقاً. واعتنق الوثنيون الدين الإسلامي بسهولة ويسر. وتم ذلك إبان مطلع القرن التاسع عشر.

وقد لعب الإسلام دوراً كبيراً في تنقية الحياة الأفريقية من الخزعبلات والبدائية في التفكير، وخلق ثقافة إسلامية أفريقية، هي أثمن ما أنتجت أفريقيا من تراث حتى الآن. ويجب أن نشيد بالدور الذي قام به المصلح الإسلامي حميدو ابن مدينة ماكينا، وكان الشيخ حميدو في الأصل أحد أتباع الزعيم عثمان دان فوديو، واشترك معه في جهاده، وحمل إحدى راياته، ونجح الشيخ حميدو في هزيمة حاكم ماكينا المسلم، «الحائد عن الإسلام»، وأسس دولة إسلامية كبيرة على طول نهر النيجر، تمتد من «جني» إلى تمبوكتو، وقد وصف المؤرخون هذه الدولة بأنها أكبر دولة أفريقية قامت على تعاليم الإسلام الحنيف في غرب أفريقيا⁽٧⁾، إذ قام حكمها على نظام الخلافة الإسلامية. وظلت هذه الدولة قائمة حتى تولى قيادتها زعيم جديد هو الحاج عمر، وذلك في عام ١٨٦٢.

إن دراسة شخصية وجهاد الحاج عمر، أعظم المجاهدين المسلمين الأفارقة أمر مفيد جداً للمؤرخ الذي يريد تتبع انتشار الإسلام في أفريقيا في العصر الحديث، وهو زعيم المجاهدين الأفريقيين بلا شك. وهو أول من رفع راية الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، وأقام الدولة

الكبرى المرتكزة على دعائم الإسلام، وهي الدولة التي قدر لها أن تواجه الاستعمار الأوروبي الطموح، في غرب أفريقيا.

ولد الحاج عمر سعيد بن طال عام ١٧٩٤ في منطقة الفوتاتورو، حيث كان ينتمي نسبه إلى قبائل التوكولور المنحدرة من الأصل الفولاني، وكان شعب التوكولور شعباً إسلامياً، نبذ الخضوع للحكام الوثنيين منذ جيل مضى قبل ظهور الحاج عمر. بل حاولوا عبثاً إقامة دولة إسلامية عدة مرات.

وكان عمر ـ مثل سلفه المصلح ـ عثمان دان فوديو، فقيهاً في أمور الدين الإسلامي، تلقى العلم على أيدي فقهاء أفاضل، مثل الفقيه العالم الشيخ عبد الكريم، من بلدته الفوتا جاللون. وقد أدخل الشيخ تلميذه في زمرته وصار من أتباعه وأدخله الطريقة التيجانية، التي جاءت إلى السنغال من شمال أفريقيا عبر موريتانيا، وانتشرت بسرعة في غرب أفريقيا. وكان مؤسس هذه البدعة الإسلامية هو الشيخ أحمد التيجاني، الذي ادعى أن نسبه يرجع إلى آل البيت.

وبالرغم من أن التيجانية طريقة تحريفية، حادت قليلاً عن الطريق الأساسي لمبادىء الإسلام والسنة، إلا أن قلوب الأفريقيين تعلقت بها، واعتبروها فكراً أفريقياً إسلامياً، وليس مكان هذه المقالة التعرض للطريقة التيجانية ومدى خروجها في بعض الجوانب عن الخط الأساسي للإسلام، لكننا نشير إليها كطريقة تجمع حولها المسلمون الأفريقيون في جهادهم ضد المستعمرين.

وفي عام ١٨٢٦ مر عمر بمدينة ماكينا في طريقه إلى مكة المكرمة، لأداء فريضة الحج والتي وصلها عام ١٨٢٨، وهناك عينه خليفة الطريقة التيجانية في الحجاز «مقدماً» للطريقة على بلاده، ولما عاد أعلن أنه قد عين وهو في الحجاز خليفة للطريقة على بلاده. وعلى العموم لم يرجع عمر إلى بلاده في غرب أفريقيا إلا في عام ١٨٣٣، ولقد حطّ رحاله أولاً في البورنو، حيث تزوج من ابنة الشيخو (الشيخ)، ثم غادرها متجهاً غرباً فوصل سوكوتو، وهناك أيضاً تزوج من ابنة السلطان بللو، والتي ولدت له خليفته من بعده أحمدو، وقد أقام عمر بها خمس سنوات، واشترك في حروب الجهاد، التي كان يقودها صهره بللو، في ذلك الوقت، ليخلق دولة إسلامية. وقد توطدت أواصر الصداقة بين الحاج عمر، وبين السلطان بللو، لدرجة أن السلطان اختاره لكي يخلفه بعد موته لحكم سوكوتو. وعلى أي حال فقد وطد عمر أواصر

الصداقة والقربى مع سلاطين ماكينا، وبورنو، وسوكوتو، وفوطا باللون، مما جعله يبدو في عيون مريديه، دعامة الوحدة الإسلامية في غرب أفريقيا في ذلك الوقت(٨).

ولقد كانت السنوات التي قضاها عمر في سوكوتو سنوات حاسمة في تحديد آرائه إزاء الوثنيين وضعاف القلوب من المسلمين(٩) ، إذ تشرب بآراء وأفكار جهاد السلطان بللو، ودرس مبررات هذا الجهاد، خاصة بالنسبة لإعلان الجهاد ضد بعض الحكام المبلمين، الذين أهملوا اتباع العقيدة وتطبيقها في الحكم، وعلى أي حال لم يشرع عمر في جهاده الأكبر إلا في عام ١٨٥٢.

وبعد مغادرته لسوكوتو، عاد متجولاً في طريقه إلى بلدته، حيث نزل في رحاب «الأمامي» (الإمام) في فوتا باللون عام ١٨٤٠ ، والذي كان يتخوف منه وينظر إليه نظرة الشك، خوفاً من أفكاره، غير أن «الإمامي» ما لبث أن مات، ودخل الإمام الجديد في طائفة الحاج عمر، وأصبح من أتباعه بل سمح له بتأسيس مستوطنة لاتباع الطريقة التيجانية في دياجاكو داخل أراضيه لكن فيما بعد تزايد قلق الإمام الجديد، من طبيعة الدعوة التيجانية وخطورتها. فغادر عمر سوكوتو.

وفي «دنجويراد» أقام عمر قاعدة يدرب فيها اتباعه، ليس على تعاليم طائفته التيجانية فحسب، بل على أساليب القتال إستعداداً لإعلان الجهاد الأكبر، وفي السادس من شهر سبتمبر عام ١٨٥٢ أعلن أنه سوف يحارب بإذن الله كل من لا يقبل الإسلام ديناً، وكان يقصد بذلك قبائل إقليم بامبارا الوثنية، وفي هذه المرحلة حرص الحاج عمر على عدم توجيه حروب الجهاد غرباً تجاه مسقط رأسه في فوتا تورو، حتى يتفادى الإشتباك مع قوات الاستعمار الفرنسي المتمركزة عند مصب نهر السنغال. ولقد نجح عمر في الإستيلاء على مملكة كابرتا Kaerta التي تسكنها قبائل البامبارا الوثنية عام ١٨٥٤، وأعلن حاكم مستعمرات فرنسا في السنغال وكان اسمه فيديرب Faidherbe أن الشيخ عمر وحركته يشكلان تهديداً سافراً لمصالح فرنسا. كما أعلن عمر كراهيته ومقته للفرنسيين، ولحركاتهم للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية الغربية على أفريقيا فكراً وروحاً. فقد وجه الحاج عمر رسالة إلى المسلمين الواقعين داخل نفوذ المستوطنات الفرنسية خاصة سكان مدينة سانت لويس، يقول فيها: «**من الآن فصاعداً سوف ألجأ إلى القوة، ولن أتوقف حتى يتحقق السلام، الذي أبغيه، ويقبله الطاغية الذي يحكمكم**»(١٠) (يقصد الحاكم الفرنسي فيديرب). وعلى أثر هذه الرسالة، غادر المدينة عشرات

من المسلمين الأفارقة، خاصة من الصناع والحرفيين والبنائين، متجهين إلى القاعدة الإسلامية في دانجويراي، لمساعدة عمر في بناء القلاع والحصون إستعداداً لمعاركه مع المستعمرين الفرنسيين. والحقيقة أن الحاج عمر كان معتدلاً في نظرته إلى الفرنسيين، إذ أعلن ـ إذا كان الهدف من مجيء الفرنسيين هو التجارة فهو لا يمانع من التجارة معهم، بشرط أن يدفعوا له الجزية له باعتبارهم نصارى كغيرهم من غير المسلمين، الذين يقيمون داخل دولته الإسلامية(١١) ، أما إذا كان هدفهم هو الإستيلاء بالقوة المسلحة على أراضي السنغال، والسيطرة ببوارجهم الحربية على نهره، ونشر المسيحية فإنه سوف يحاربهم لآخر قطرة في دمه، وكرد على تهديدات عمر أقام «فيديرب» قلعة في بلدة المدينة عام ١٨٥٥، خوفاً من اندلاع الجهاد الإسلامي ضد الفرنسيين. كما راح فيديرب يلجأ إلى الحيل الماكرة، فأوقع بين عمر، وبين حاكم إقليم خاسو المسلم، واستمال هذا الأخير إلى جانب الفرنسيين، وحصل منه على موافقة ببناء قلعة فرنسية أخرى، داخل أراضيه، مقابل حماية فرنسا له وكان هدف «فيديرب» من ذلك هو إقناع عمر، بأن الوجود الفرنسي في السنغال حقيقة واقعة، يجب أن يعترف بها. كما شرع فيديرب في استمالة الوثنيين، وبدأت بعثات التبشير الكاثوليكية تنتشر بينهم.

لكن عمر أعلن رفضه للاستعمار الفرنسي والمسيحية معاً، وصمم على طردهم من بلاده، فهاجم القلعة الفرنسية في المدينة عام ١٨٥٧، وكاد أن يستولي عليها وقاوم قائدها «بول هول» Paul Hall ، حتى جاء المدد من فيديرب، وقد شهد فيديرب بشجاعة واستبسال المسلمين، وبأنه لم يشهد مثل ذلك الاستبسال في حياته، لكن السلاح الفرنسي غلب قوات عمر على أمرها، فارتدت، ثم عادت في عام ١٨٥٩، لتهاجم القلعة الفرنسية الثانية في «ماتام» ولكنها ردت مرة أخرى على أعقابها. ولكن بالرغم من هزائم القوات الإسلامية إلا أنها نجحت في وقف التوسع الفرنسي، كما منيت التجارة الفرنسية بالخسائر الفادحة إزاء أعمال المقاومة الإسلامية، وإزاء ذلك فكر الفرنسيون في تدمير جويمو Guemou أكبر قاعدة عسكرية لقوات الحاج عمر، وتم للفرنسيين ذلك في ٢٥ أكتوبر عام ١٨٥٩.

وبعد سقوط جويمو، واستنزاف عدد كبير من رجاله، استدار عمر لينقل جبهة القتال إلى النيجر في عام ١٨٥٩، ولهذا يعتبر ذلك العام هو نقطة التحول في الدعوة الإسلامية في أفريقيا الغربية(١٢) ، ولقد رأى عمر أن يتفق مع الفرنسيين في وضع خط للهدنة، يفصل بينه وبينهم

فوافق الفرنسيون في عام ١٨٦٠ ، على وضع خط فاصل بين مناطق نفوذهم والدولة الإسلامية الإفريقية. وجدير بالذكر أن هذا القبول بوضع خط فاصل بين النفوذ الفرنسي وأفريقيا الإسلامية الحرة، كان في نظر عمر تكتيك مؤقت، حتى يستعيد قوته، ويدعم دعوته شرقاً، ويعبى، قلوب المسلمين ضد الوجود الفرنسي، ويمنع أي تجارة بين وادي النيجر وبينهم، إستعداداً لمواجهة شاملة معهم. ووجه عمر نداءاته إلى المسلمين بالتجمع في كارتا، ومسيجو. وبدأت جموع المسلمين، من رجال، ونساء، وأطفال تزحف تحت وابل من النيران الفرنسية لتلتف حول زعيم الجهاد الأفريقي الأكبر(١٣).

وما أن أقبل عام ١٨٦٣ ، حتى كان الحاج عمر قد أقام دولة إسلامية كبرى، تمتد من القاعدة الفرنسية في المدينة، حتى تمبوكتو. وذعر القائد الفرنسي «فيديرب» فأرسل سفيراً للحاج عمر، واسمه ماج Mage يذكره باحترام الهدنة القديمة، وباستعداد التجار الفرنسيين لدفع الجزية له. وباعتراف المؤرخ هارجريفس Hargreaves كان قبول الفرنسيين لدفع الجزية، هو قمة انتصار عمر، وبخاصة في بناء الدولة الإسلامية القوية(١٤).

وشاءت إرادة الله أن يستشهد الحاج عمر عام ١٨٦٤ ، خلال إحدى الاشتباكات مع الفرنسيين، ورغم موته لم يجرؤ الفرنسيون على تجاوز خط هدنة عام ١٨٥٩ ، لمدة خمس عشرة عاماً، ولما بدأوا بعد ذلك التاريخ في الزحف على حساب الدولة الإسلامية، قوبلوا بمقاومة شرسة.

لقد نجح الحاج عمر، في بناء الدولة الإسلامية القائمة على أساس القرآن والسنة، وامتدت هذه الدولة حتى غطت كل أراضي أمبراطورية السونغاي القديمة ولولا ما أراده الله من قدوم الاستعمار الفرنسي بأسلحته الحديثة، عندما كان العالم العربي الإسلامي مفككاً ضعيفاً، لا يستطيع أن يساند أشقاءه في أفريقيا، لوحد مسلمو غرب أفريقيا غرب أفريقيا كله، بل وساروا لتوحيد أفريقيا السوداء في دولة إسلامية وكان هذا كاف بتغيير وجه التاريخ.

هكذا انتصر الاسلام في غرب أفريقيا، على الصليبية الأوروبية الاستعمارية في القرن التاسع عشر، ولكنه يواجه الآن في القرن العشرين صليبية من نوع جديد هي الشيوعية الالحادية، التي أرادت أن تجرب حظها في مقاومة الاسلام، ولعل آخر هذه

المحاولات الخبيثة، محاولة الانقلاب الشيوعي الأخير في جامبيا، لولا تصدي قوات جمهورية السنغال لهذه المؤامرة واحباطها. غير أن هذه المحاولة الخبيثة أيقظت المسلمين في غرب أفريقيا، فنسمع عن قرار اتحاد جامبيا مع السنغال في جمهورية واحدة تسمى سينجامبيا، مما يخلق الظروف المواتية لاعادة توحيد الدولة الاسلامية الكبرى في غرب أفريقيا، والتي قاتل من أجلها المجاهد الاسلامي الحاج عمر، حتى أقامها، ولكن الاستعمار مزقها الى ثلاث جمهوريات: هي جمهورية السنغال، وجمهورية جامبيا، وجمهورية مالي. وان قيام هذا الاتحاد بين جامبيا والسنغال، يوسع دائرة الأمل، في أن تنضم اليه جمهورية مالي(١٥)، التي كانت أول أرض أفريقية جنوب الصحراء، استقبلت رسالة الاسلام والتوحيد، ومنها انتشرت الرسالة على طول نهر جامبيا، ثم استدارت مع الساحل، حتى وصلت الى ساحل العاج، وتوغلت من هناك إلى قلب القارة الأفريقية، تحمل رسالة الحضارة والتوحيد، وعندما يتحقق ذلك الأمل الكبير، فان المسلمين الأفريقيين، سوف يتذكرون سيرة ذلك المجاهد الكبير، بكثير من الاعزاز والتقدير.

●●●

الهوامش:

---

(١) عن انتشار المسيحية في أوروبا العصور الوسطى بالقوة أنظر:
هـ.أ. فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠، الفصل الثامن ص ١٣٧ وما بعدها، كذلك انظر: عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٩٤ وص ١٦٧ وما بعدها.

(٢) هذه الترجمة العربية هي ترجمة الإسم الذي أعطاه بالدوين لهذا الكتاب أنظر:
Baldwin, The Obligations of Princes
وقد ترجم كتاب بالدوين إلى العربية انظر:
المغيلي: التزامات الأمراء، طبعة بيروت عام ١٩٣٢م.

● Bibliography ●

1 - E.W. Bovill, The Golden Trade of the Moors, London 1938.
2 - Michael Crowder, West Africa Under Colonial Rule, Rutchinson of London 1968, p 33.

3 - Crowder, op-cit pp 33 - 34.
4 - Uthman B. Fudi in verse, Research Bulletin of the Centre of Arabic Documents, Ibadan, II, 1, January 1966, pp 8 - 9.
5 - H. F. C Smith, A Neglected Theme in West African History: The Islamic Revolution of the Nineteenth Century, **Journal of the Historical Society of Nigeria**, II, 1961, p 77.
6 - F. H. El-Mazri, The Life of Usman Dan Fodio before the Jihad, **Journal of Historical Society of Nigeria**, II, 4, pp 435-48.
Marilyn Waldman Roberson, The Fulani Jihad: a Reassessment, **J. A. H**, vi, 3, p 335 - 356.
7 - Crowder, op-cit, p36.
8 - A. D. Hargreaves, Prelude to the Partition of West Africa, London, 1963, p10.
9 - Jamil Abu Nasr, The Tijaniyya: A Sufi Order in the Modern World, London 1965, p109.
10 - P. Cultru, Histoire du Senegal du Xve siecle a 1870, Paris, 1910, p337.
11 - Vincent Monteil, L'Islam Noir, Paris, 1964, p89.
12 - Jamil Abul Nasr, op-cit, p 119.
13 - Annales du Senegal, February, 1857, p124-
14 - ibid. 112.